العلوم الاجتماعية تحت الحصار
الشرق الأوسط

ديل أيكلمان
ترجمة: حبيب الحاج سالم

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2022
All rights reserved © 2022

العلوم الاجتماعيَّة تحت الحصار الشَّرق الأوسط

ديل أيكلمان[1]

ترجمة: **حبيب الحاج سالم**

مراجعة: **مصطفى الوجاني**

1- ديل إيكلمان، أنثربولوجيا المجتمعات الإسلامية، دار مؤمنون للنشر والتوزيع.

في ورقة كتبَها عام 1913؛ جادل ماكس فيبر بحماس أنَّ الأحكام القِيَميَّة في العلوم الاجتماعيَّة «تفترض، ببساطة، التَّسليم مسبقاً بإمكانيَّة انحراف القيم السَّامية من حيث المبدأ وبشكل لا رجعة فيه» (1978: 81). ويواصل فيبر القول (1978: 70) إنَّه يجب على كلّ مدرّس مستقلٍ رفض المزاعم الَّتي تفرض على السِّجالات الأكاديميَّة التَّجرُّد من العواطف وتجنُّب المسائل الَّتي تثير نقاشات «ساخنة»؛ بل يجب على الأكاديميّين تناول مثل تلك المسائل، بوصفهم مُحلِّلين، وليس بوصفهم أبواق دعاية.

بما أنَّها كتبت عشيَّة الحرب العالميَّة الأولى؛ فإنَّ ورقة فيبر تكتسي طابعاً لاذعاً، لكنَّ نظرته كانت موضوع تحدٍّ مُتكرّر مِن قِبَل التَّيَّارات السِّياسيَّة والدِّينيَّة اليمينيَّة واليساريَّة داخل الجامعة وخارجها. وقد سجَّل إدوارد شيلز (1997: 166-7) في معرض تأمُّله للتَّغيُّرات الطَّويلة الأمد الَّتي طرأت على الجامعات الأمريكيَّة؛ تقلُّصاً في السُّلطة المؤسَّساتيَّة في المجتمعات الغربيَّة بشكلٍ عامّ. وأكَّد أنَّ الانتهاكات كانت في حِقَب سابقة تصدر عن الإداريّين في الجامعات، وفي أحيان كثيرة عَمَّن «نَصَّبوا أنفسَهم» من خارج الحرم الجامعيّ سدنةً للجامعة. لكنَّ التَّهديد الأكبر لمبدأ الاستقلاليَّة الأكاديميَّة عن الموالاة الحزبيَّة سينبثق منذ ستّينيات القرن العشرين من داخل محيط الجامعة؛ حيث انحاز الأساتذة أنفسُهم لعدَّة قضايا سياسيَّة، وحجَّموا معايير «الأداء الفكريّ وتوسُّم الأداء الفكريّ» وعزيمة «المرشَّحين» وقدرتهم على تَتبُّع وتبليغ الحقائق المرتبطة بالموادِّ الملقَّنة والمبحوثة والمدروسة في الجامعات، حتَّى غدت هذه المعايير مُجرَّد معيار ضمن معايير كثيرة (1977: 174-5).

الدِّراسات الشَّرق-أوسطيَّة تحت المجهر:

لا ينأى البحث العلميُّ حول الشَّرق الأوسط عن التَّحدِّيات الَّتي تفرضها الدُّول والمجتمعات، بل عن التَّحدِّيات المفروضة من داخل الحقل الأكاديميِّ ذاته. نبحث في هذا الفصل كُنْهَ الشُّروط الَّتي تتيح للعلوم الاجتماعيَّة التَّعالي عن الضُّغوط السِّياسيَّة المباشرة، أو على الأقلّ إدراك ثمن الخضوع لها؛ ذلك أنَّ دراسة المنطقة تقتضي شغفاً فكريّاً وتخصُّصاً أكاديميّاً من أجل الحفاظ على علوم اجتماعيَّة مُستقلَّة عن كلّ تحيُّزٍ سياسيّ، وعن إغراء البحوث المأجورة. وإذا ما كانت جميع العلوم الاجتماعيَّة عرضةً لمثل هذه الضُّغوط؛ فإنَّ البحث في شؤون الشَّرق الأوسط يتطلَّب بصفة خاصَّة شغفاً شديداً.

والواقع أنَّ الضُّغوطات لتحريف العلوم الاجتماعيَّة عن التَّحليل المُستقلّ وغير المُتحزّب؛ لا تمثِّل ظاهرة مستجدَّة. فقبل أكثر من عقدين؛ قال رئيس قسم أنثروبولوجيا رائد في الولايات المتَّحدة لزميل لنا (ضمن مراسلة شخصيَّة بتاريخ 11 آذار/مارس 1989) إنَّه يُفضِّل عدم توظيف أنثروبولوجيّين مختصّين في العالم العربيّ؛ لأنَّ الشَّرق الأوسط منطقة «مضطربة» ولن ينتجوا بالتَّالي بحوثاً ذات جودة عالية.

لقد جاء هذا التّصريح في محادثة شخصيَّة، وقد يكون مشوباً ببعض السُّخرية الضِّمنيَّة، لكنَّ قسم الأنثروبولوجيا المعنيَّ لم يوظِّف أنثروبولوجيّين متخصِّصين في شؤون العالم العربيِّ طيلةَ أكثر من عقد. وخلال نفس الفترة الزَّمنيَّة؛ أجرى العديد من أعضاء هيئة التَّدريس في نفس القسم، وبشكل شبه مؤكَّد، بحوثاً ميدانيَّة في جميع مناطق العالم الأُخرى تقريباً، بما في ذلك الجنوب وجنوب شرق آسيا وإفريقيا (بما فيها جنوب إفريقيا في ظلِّ نظام الأبارتايد) وأمريكا اللَّاتينيَّة وأوروبا وأوقيانوسيا. وكانت كثير من تلك المناطق تشهد حينها، أو قد شهدت منذ فترة قريبة، صراعات محلِّيَّة أو عالميَّة عنيفة. وفي الآونة الأخيرة؛ تعرَّض عالِمَان سياسيَّان رائدان لهجمات مُمنهَجة ومتواصلة، كانت أشدَّ من الهجمات الَّتي تطال مسائل أخرى تخصُّ الشُّؤون الخارجيَّة، وذلك لنشرهما ورقة تقييميَّة لتأثير مجموعات الضَّغط المؤيِّدة لإسرائيل على السِّياسة الخارجيَّة للولايات المتَّحدة (mearsheimer and walt 2006).

وفي مناطق أُخرى من العالم، بما في ذلك الكتلة السُّوفييتيَّة السَّابقة، أضحى بإمكاننا اليوم مقاربة الأسئلة الَّتي كانت محظورة أو ممنوعة زمن الاتِّحاد السُّوفييتيِّ. وسواءٌ تعلَّق الأمر بالحسم في الأصل السُّلافيِّ أو «الشَّرقيِّ» لشعب من الشعوب (shnirelman 1996) أو بأصول الصِّراع في الشِّيشان (tishkov 2004)؛ فإنَّ ضغطاً شديداً ما زال يُمارَس من أجل تجنُّب مهاجمة «الرِّواية الرَّسميَّة» لأحداث الماضي، بل أحياناً من أجل تجنُّب إجراء البحوث الاجتماعيَّة كُلِّيَّاً (kohl and fawcett 1995; verdery 1991). وبالرَّغم من تلك القيود؛ فقد أضحى العلماء المقيمون حاليَّاً في ما كان يُعرف بالاتِّحاد السُّوفييتيِّ سابقاً، أو في دول أُخرى في الكتلة السُّوفييتيَّة، يتخطَّون في حالات عديدة حواجزَ الرَّقابة الذَّاتيَّة. وقد كتب لاتشك دزيغيل؛ الَّذي تشمل كتاباته عدداً من البحوث الميدانيَّة أجراها في القرى الكرديَّة الَّتي كانت تواجه ما اصطلح عليه مداهنةً؛ «تحديثاً» على أيدي السُّلطات العراقيَّة في نهاية عقد السَّبعينيات (dziggiel 1981): «مذكَّرات ما بعد شيوعيَّة» (dziggiel 1998) تشير بشكل لاذع إلى القيود الَّتي كانت مفروضة على حرِّيَّة التَّعبير في السَّابق. كما تذكر بعض التَّقارير أنَّ مسؤولين يَمنيِّين في جمهوريَّة اليمن الشَّعبيَّة الدِّيمقراطيَّة السَّابقة؛ أجبروا فيتالي ناومكين -وهو باحثٌ أنثروبولوجيٌّ في المقام الأوَّل، عمل ودرَّس هناك بين عامي 1972 و1977- على مغادرة البلاد؛ لأنَّهم اعتبروه مُلِمَّاً أكثر من اللَّازم بصراعاتهم السِّياسيَّة والقَبَليَّة الدَّاخليَّة (naumkin 1984; 2004).

وعلى نحوٍ مُماثل؛ يمثِّل مشروع «بحوث برنشتاين إسرائيل»، الَّذي أُطلق عام 1963 تحت إدارة إيمانويل ماركس، نموذجاً لبحث مُنجز في ظلِّ ظروف صعبة (marx 1980: 1, 9).

إنَّ الدَّارسين الَّذين يكتبون في سياقات وطنيَّة مختلفة؛ يجدون أنفسَهم تحت ضغوط مكثَّفة تدفعهم نحو الامتثال للتَّيَّارات السِّياسيَّة السَّائدة. ورغم النِّداءات الموجَّهة لمقاطعة المؤتمر العالميِّ الأوَّل لدراسات

الشَّرق الأوسط المنعقد في مدينة ماينز ما بين 9 و13 أيلول/سبتمبر عام 2002؛ إلَّا أنَّه كان حدثاً ناجحاً؛ لأنَّه جمعَ إسرائيليِّين وعرباً، من بين آخرين كثر. ولم تُفضِ المقاطعة اللَّاحقة لبعض الدَّارسين العرب للمؤتمر العالميِّ الثَّاني في عمَّان في حزيران/يونيو 2006 إلَّا إلى عزلِ المقاطعين عن حدثٍ علميٍّ مُهمّ. وفي شهر نيسان/أبريل عام 2005؛ صادقت نقابة أكاديميَّة بريطانيَّة على قرار مؤيِّد لمقاطعة التَّعاون مع الدَّارسين الإسرائيليِّين ما لم يدينوا علانيةً سياسات الحكومة الإسرائيليَّة تجاه فلسطين (jaschik 2006)، وقد خلَّفَ هذا الإجراء نقاشاً محتدماً حول مسألة المقاطعة الأكاديميَّة بصفة عامَّة (الرَّابطة الأمريكيَّة لأساتذة الجامعات 2006). أمَّا في الولايات المتَّحدة؛ فإنَّ الضُّغوط تصدر بصفة خاصَّة عن جماعات تسعى لتصحيح الأحكام الجاهزة المزعومة ضدَّ إسرائيل في الأوساط الجامعيَّة، ويتمُّ تشجيع الطَّلَبة على التَّبليغ عن حالات التَّحيُّز الصَّادرة عن أعضاء هيئة التَّدريس (www.campus-watch.org). إضافةً إلى ذلك؛ دافع (2001) بعض النُّقَّاد بصفة فرديَّة، ومِن ضمنهم مارتن كرامر، عن إحداث لجان حكوميَّة خارجيَّة ترصد أنشطة المراكز الَّتي تتلقَّى دعماً حكوميَّاً والمتخصِّصة في البحث في شؤون الشَّرق الأوسط داخل الجامعات.

لا تقتصر الضُّغوط على الجامعات، ففي تشرين الأول/أكتوبر عام 2001؛ مارست وزيرة الخارجيَّة الأمريكيَّة كوندوليزا رايس ضغوطاً ناجحة على شبكات التِّلفزيون الأمريكيَّة لمنعها من بثِّ أشرطة فيديو لأسامة بن لادن، بدعوى إمكانيَّة احتوائها «رسائل سِرِّيَّة» قد تؤدِّي إلى مزيد من الهجمات. هذا فيما دافع آخرون، من ضمنهم كاتب هذا المقال (eickelman 2001)، عن البثِّ الحرِّ لمثل تلك الأشرطة من أجل «معرفة العدوِّ».

في معنى الحصار:

تكتنف مفهوم «الحصار» دلالات متداخلة، وإحدى دلالاته الكلاسيكيَّة؛ هي استثمار موقعٍ ما لقطع اتِّصالات العدوِّ مع العالم الخارجيِّ بغيةَ إجباره على الاستسلام. وقد يعني أيضاً فترة مرض، أو صراع، أو صعوبات، ويحيل مجازيَّاً على عقليَّة دفاعيَّة؛ أي: حالة ذهنيَّة مؤسَّسة على افتراض عداوة من الآخرين.

وعلى غرار الأفكار حول مجال العلوم الاجتماعيَّة واستخداماتها؛ تعرف الأفكار حول علاقة العلوم الاجتماعيَّة بالسُّلطة تحوُّلات متواصلة. فَمِن جهة؛ نجد منظور إدوارد شيلز: حين رأت هيئة التَّدريس في أواخر عقد السِّتِّينيات غياب عقوبات فعَّالة من الدَّولة على احتجاجات الطَّلَبة؛ اعتبر بعض أعضاء هيئة التَّدريس الحرِّيَّة الأكاديميَّة حجَّة لدعم «تدمير المجتمع القائم وتقاليده الثَّقافيَّة»، وجعلوا قضيَّة الثَّورة «واجباً أخلاقيَّاً» (shils 1997: 166).

من جهة ثانية؛ يوجد المنظور المؤيِّد للسُّلطة المفوَّضة لمختلف شبكات النُّظراء المحترمين. وهذه هي الحال، على سبيل المثال، في لجان التَّرقية والتَّرسيم في أغلب المؤسَّسات الأكاديميَّة، حيث توجد قواعد دقيقة لاختيار نظراء أكفاء لتقييم المرشَّحين لنيل التَّرقيات إلى رُتَب أكاديميَّة أعلى. وعلى الرَّغم من أنَّ جميع المقيِّمين نظراء أكاديميُّون؛ فإنَّ العمداء بدورهم يقومون بمساندة حالات فرديَّة أو معارضتها. كما تتوفَّر أغلب المؤسَّسات على لجنة استشاريَّة مركزيَّة تقوم بمراجعة تقييمات لجان الأقسام أو البرامج. وعادة ما يكون لمجلس الأمناء الكلمة الفصل في المصادقة على التَّعيينات، لكنَّه لا يتدخَّل في القرارات الأكاديميَّة إلَّا في ظروف استثنائيَّة. ورغم تشكيك الكونغرس الأمريكيِّ في بعض الأحيان في كفاءة تقييم النُّظراء؛ فقد خلصت جلسات الاستماع الموسَّعة منتصف الثَّمانينيات إلى ترجيح أنَّ بدائله قد تكون أقلَّ فعاليَّة (الكونغرس الأمريكيُّ 1986).

ومن هنا؛ فإنَّ الحدَّ الفاصل بين تقييم النُّظراء والإغراءات والقيود الخارجيَّة؛ يشهد تغيُّراً مستمرَّاً. ومن ذلك: أنَّ بحوث العلوم الاجتماعيَّة المُموَّلة من طرف منظَّمة اليونسكو حول أشكال التَّعليم العالي غير التَّقليديَّة، أو من طرف منظَّمة العمل الدُّوليَّة حول البداوة الرَّعويَّة أو حول تنظيم العمل، هي بحوث تحت الطَّلب، لكنَّها تخضع عادةً لتقييم نظراء يشمل مراجعة التَّكليف بالبحث ومراجعة النَّتائج قبل نشرها. وبالمثل؛ فإنَّ «مشروع كاملوت» لوزارة الدِّفاع الأمريكيَّة المتمحور حول التَّحقيق في إمكانيَّة اندلاع اضطرابات اجتماعيَّة عنيفة في أمريكا اللَّاتينيَّة خلال السِّتِّينيات؛ كان بدوره بحثاً تحت الطَّلب، لكنَّه تضمَّن إقراراً بحفظ السِّرِّيَّة وعدم الكشف عن مصادر التَّمويل. وجرَّاء اللُّجوء إلى بعض الحِيَل قصد مواصلة المشروع؛ تمَّ اعتبارُه، على نطاق واسع، غير أخلاقيٍّ (horowitz 1974).

منذ مطلع القرن التَّاسع عشر؛ تنافسَ داخل العلوم الاجتماعيَّة تَصوُّران. يعود الفضل في التَّصوُّر الأوَّل إلى أوغست كونت (1798-1857) الَّذي اعتبر العلوم الاجتماعيَّة هندسة اجتماعيَّة. ووفقاً لهذا المنظور؛ فإنَّ الفهم «العلميَّ» للمجتمع يسمح بإدارة التَّكوينات الاجتماعيَّة أو التَّحكُّم فيها؛ إمَّا لتحسين الشَّرط الإنسانيِّ، أو لإحداث نتائج مرغوبة. وتُعتبر فكرة العقاب كوسيلة لـــ «إصلاح» المجرمين أو «تقويمهم»، إمَّا للتَّخلُّص منهم أو لإعادة دمجهم في المجتمع؛ مثالاً على التَّحكُّم الاجتماعيِّ (foucault 1977). وبهذا المعنى؛ فإنَّ الاقتصاد كعلم اجتماعيٍّ ربَّما يكون أكثر العلوم الاجتماعيَّة تقبُّلاً عند الجماهير، وبالتَّالي؛ فلا غروَ أن تكون لمواقف رئيس مجلس الاحتياطيِّ الأمريكيِّ وتصريحاته نتائج شعبيَّة كبرى. ويساهم العلماء الاجتماعيُّون كذلك في مشاريع التَّنمية؛ مُنطلقين من فكرة أنَّ «إدارة» قرى وبلدان بأكملها يمكنها تحقيق ظروف اقتصاديَّة وحياتيَّة أفضل.

أمَّا التَّصوُّر الثَّاني للعلوم الاجتماعيَّة؛ فيتمثَّل في التَّفكير المنهجيِّ في الأشكال والممارسات الاجتماعيَّة بطرق؛ غالباً ما تكون هدَّامة في العمق، بمعنى أنَّها: غالباً ما تنتقد أو تصوِّر النَّتائج غير المقصودة للأشكال والممارسات الاجتماعيَّة المتسلِّطة، السَّائدة منها والرَّسميَّة. ويمثِّل كتاب كنعان مكِّيَّة «جمهوريَّة الخوف» (1998)، وهو نقد لممارسة السُّلطة في عراق صدَّام حسين، مثالاً قاطعاً لهذا الأسلوب من التَّفكير. ولَئِن كان هذا الكتاب أقلَّ عمقاً من كتاب رايت ميلز «نخبة السُّلطة» (1956)؛ إلَّا أنَّه لا يقلُّ تأثيراً من حيث عرض وتحليل الأوتار الخفيَّة للسُّلطة والامتيازات.

دور المثقَّفين المُتغيِّر:

قام إدوارد شيلز (shils 1972: 16)، وهو عالِم اجتماع شديد المحافظة، بتعريف المثقَّف في السِّتِّينيات على أنَّه شخص يتوخَّى اختراق حاجز التَّجربة الملموسة المباشرة؛ بغية تبيُّن الملامح الأكثر رسوخاً وثباتاً في الحياة الاجتماعيَّة. ويمكن تكييف التَّعريف ذاته لتطبيقه على المجهودات الهادفة في العلوم الاجتماعيَّة والفكر الاجتماعيِّ، بما فيها عمل المؤرِّخ.

وكان المؤرِّخ الاجتماعيُّ الفرنسيُّ مارك بلوك (1964: 148) قد أشار إلى أنَّ التَّكوينات الاجتماعيَّة الجديدة لم تبدعها الأجيال المتتالية بصورة واعية، بل أُبتدعت «جرَّاء محاولة تكييف التَّكوينات القديمة». وقد كان، عند كتابته هذه السُّطور، يضع في اعتباره روابط التَّبعيَّة في أوربا الإقطاعيَّة، ومع ذلك؛ فإنَّ ملاحظته تُفيد أيضاً في فهم السِّياسة والمجتمعات المعاصرة، وكذلك في فهم الدَّور المعاصر للإيمان والممارسة الدِّينيَّة. وبهذا المعنى؛ فإنَّ لِعلماء الاجتماع، على غرار المثقَّفين، قدرة يصعب على السُّلطات السِّياسيَّة ضبطها أو السَّيطرة عليها.

ويُقدِّم مصير العديد من المثقَّفين والعلماء في الولايات المتَّحدة خلال الحقبة المكارثيَّة في بداية الخمسينيات خيرَ مثال على ذلك. إذ كان يتمُّ فصلُ كُتَّاب وعلماء من وظائفهم ما لم يقوموا بأداء قَسَم الولاء للولايات المتَّحدة، ويكشفوا للسُّلطات أسماء زملاء أو رفاق دراسة انتموا في وقت من الأوقات إلى مجموعات يُشتبه في كونها هدَّامة. وقد كان الضَّغط شديداً؛ إلى درجة أنَّ حتَّى جامعات مثل جامعة هارفرد وجامعة ييل، اللَّتين ندَّدتا علناً بعمليَّات «مطاردة السَّاحرات» مِن قِبَلِ العلماء والمثقَّفين؛ قدَّمتا سرَّاً قوائم بأسماء المتقدِّمين لوظائفها إلى مكتب التَّحقيقات الفيدراليِّ لفحصها والتَّدقيق في هويَّة أصحابها، بما في ذلك المتقدِّمين لوظائف متواضعة مثل المدرِّسين غير الرسميّين (diamond 1992). وتُجسِّد قضيَّة سعد الدِّين إبراهيم، عضو هيئة التَّدريس في الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة ورئيس مركز ابن خلدون للدِّراسات الإنمائيَّة، والَّتي حظيت بتغطية إعلاميَّة كبيرة في السَّنوات الماضية، الثَّمن الَّذي يستمرُّ بعض العلماء في دفعه نتيجة انخراطهم في أنشطة

تدعو إلى التَّشكيك في السُّلطة. وعلى أقلِّ تقدير؛ تُذكِّرنا هذه القضايا أنَّ البحث العلميَّ والأفكار لها قيمة، وأنَّها ما زالت تصنع الفارق، على الأقلِّ من حيث مواجهة السُّلطة بالحقيقة.

ويمكن تمثيل الحقل المثاليِّ الَّذي تتمُّ فيه أبحاث العلوم الاجتماعيَّة (والتَّاريخ الاجتماعيِّ) بمحورين متعامدين (انظر الرَّسم).

يتحدَّد المحور العموديُّ في أحد طرفيه بالتَّركيز على الاهتمامات المفهوميَّة العامَّة والمجرَّدة، وفي الطَّرف الآخَر بالتَّركيز على الأحداث الملموسة والمباشرة. وتشمل أغلب العلوم الاجتماعيَّة النَّافعة عناصر مجرَّدة (وقابلة للتَّعميم) وأخرى ملموسة ومباشرة.

ويتعلَّق المحور الأفقيُّ بالسُّلطة؛ أي: تخصيص الموارد لأبحاث العلوم الاجتماعيَّة. ويُمثِّل أحد طرفي المحور التَّقييم والاعتمادات الماليَّة؛ حيث يتحكم النُّظراء، أيًّا كان تعريفهم، في المعايير وتوزيع الموارد. أمَّا الطَّرف الآخَر؛ فيمثِّل المسؤوليَّة والمحاسبة تجاه سلطات الدَّولة أو العموم. ونلمس توتُّرا ديناميكيًّا متأصِّلا في القطبين، بمعنى أنَّ التَّوازن «المناسب» لدى قياس القطبين لا يمكن تحديده مرَّة واحدة وإلى الأبد، بل يجب كلَّ مرَّة إعادة تمحيصه والتَّفكير فيه. وبهذا فإنَّ دراسة حول المجلَّات النَّسويَّة في الإمبراطوريَّة العثمانيَّة في نهاية القرن التَّاسع عشر؛ قد لا يُنظَر إليها اليوم على أنَّها هدَّامة، حتَّى وإن أظهرت اهتماماً عثمانيًّا بالسَّماح للنِّساء بحضور أكبر في الحياة العامَّة (e.g., friersen 2004). لكن قبل نصف قرن؛ فإنَّ مثل هذا الدِّراسة الَّتي تُظهر قدرة الدَّولة العثمانيَّة على الإصلاح والتَّجديد كانت ستشكِّل تحدِّياً للأفكار الكماليَّة حول ماضي العثمانيِّين، وبالتَّالي؛ قد يكون من الصَّعب إجراؤها داخل تركيا آنذاك.

ويوضح عمل بيير بورديو (1930-2002) المبكِّر حول الجزائر خلال فترة كفاحها من أجل الاستقلال (1954-1962) التَّوازن بين العلوم الاجتماعيَّة والسِّياسة المشحونة في زمن الأزمة. وقد نشر كتابه «سوسيولوجيا الجزائر» لأوَّل مرَّة في فرنسا ضمن سلسلة «ماذا أعرف؟» (que sais-je?) ذات الشَّعبيَّة الواسعة عام 1958، ثمَّ في طبعة منقَّحة عام 1961؛ أي: عاماً واحداً قبل استقلال الجزائر. كما نُشرت ترجمة إنجليزيَّة للطَّبعة المنقَّحة عام 1962، بعنوان «الجزائريُّون» (the algerians)، وقد نفدَت نُسَخها منذ زمن طويل. لقد كان بورديو يُدرِّس في الجزائر حين نشر كتابه أوَّل مرَّة، وبذلك كان شاهد عيان على ما يُطلق عليه عالم الاجتماع ريموند آرون «فظائع» الفترة الاستعماريَّة المتأخِّرة.

يتوسَّل كتاب «الجزائريُّون» تجاوز آنيَّات الصِّراع. ويستحضر بورديو في المقدِّمة التَّنوُّع الجغرافيَّ واللُّغويَّ في الجزائر؛ مُحذِّراً من سهولة المبالغة في التَّعارض بين العرب والأمازيغ. كما يؤكِّد عدم وجود مجتمع مُغلق ومُنقطع عن المجتمعات الأخرى. ومع ذلك؛ فهو يحاول أن يبرهن على سعي المجموعات

للحُكم على ذاتها بناءً على علاقتها ببعضها البعض (bourdieu 1962: xiii). ويُشير إلى أنَّ هدفه هو تحليل هذه الاختلافات بهدف استكشاف ما وراءَها واكتشاف «الهويَّة القاعديَّة الَّتي تخفيها تلك الاختلافات أو تسعى للسَّيطرة عليها». ويعترف، في جمل قصيرة، بالثَّورات الَّتي أحدثها الاستعمار، وبانعدام المساواة في العلاقات بين المجموعات. لقد كان الحوار القديم بين العرب والأمازيغ غير متكافئٍ، كما يقول بورديو، لكنَّه لا يساوي شيئاً؛ قياساً بطغيان الحضور الفرنسيّ. لكنَّه مع ذلك يقول: «يمكن أن نعثر على أحد مفاتيح الدراما الحاليَّة في النِّقاش الموجِع الَّذي يعتمل داخل مجتمع مُجبر على تعريف نفسه استناداً إلى مجتمع آخَر، [لكنَّه في نفس الوقت] مُمزَّق بين عدم الثِّقة في النَّفس والدِّفاع الشَّرس عن ذاته المحاصرة» (bourdieu 1962: xiv).

لكن، بعد هذه الكلمات، يغدو كتاب (**الجزائريُّون**) توليفة اعتياديَّة من الجغرافيا البشريَّة الفرنسيَّة من خلال وصف مناطق الجزائر وأنماط عيشها المختلفة. ويهتمُّ الفصل الأوَّل بالبنية الاجتماعيَّة في بلاد القبائل، وينصبُّ اهتمام بورديو على الدَّوائر المركزيَّة لولاءات الجماعات المتشابكة المكوِّنة للمجتمع القبائليِّ؛ والَّتي تُمثِّل فيه العائلة الوحدة الأساسيَّة للمجتمع. كما يصف انعدام المساواة الغاشم بين الجنسين داخل العائلة القبائليَّة، وبنية البيت القبائليِّ، والتَّصاميم «النَّموذجيَّة» للقرية، ويتناول أخيراً فكرة «الدِّيمقراطيَّة النَّسَبيَّة أو الجينيالوجيَّة» (bourdieu 1962: 16). ويقصد بالمصطلح الأخير؛ أنَّ الانتماء مجازيّاً يتهيكَل من خلال أنساب مشتركة تهمُّ من جهة أولى التَّنظيم المنزليَّ، وتهمُّ من جهة ثانية التَّنظيم السِّياسيَّ. وفي جميع الحالات؛ يُعتبر «تخييل» جَدٍّ أعلَى تُسمَّى القبيلة باسمه نموذجاً أصليّاً لكلِّ رابط اجتماعيٍّ. ويتَّجه بعدها بورديو نحو التَّمييز بين «نمط ديمقراطيَّتنا» -والَّتي من المفروض أن تكون فرنسيَّة تقدِّم تصوُّراً حول المصلحة العامَّة وسلطة تنفيذيَّة مُحدَّدة وشكلاً من أشكال النِّظام البرلمانيِّ- وبين الدِّيمقراطيَّة القبائليَّة الَّتي يتَّفق في إطارها مجلس (تَجْمّاعْتْ) على اتِّخاذ القرارات بالإجماع. ونُسجِّل هنا أنَّ تحليل بورديو هذا يُقصي الاقتصاد السِّياسيَّ للفلَّاحين تحت حكم المُستعمِر وتأثيرات الحكم الاستعماريِّ المتجذِّر على الأفكار المتعلِّقة بالهويَّات الأمازيغيَّة والعربيَّة والوطنيَّة في سياق كفاح الجزائر من أجل الاستقلال.

وفي الفصل الأخير من الكتاب، وهو بعنوان «الثَّورة داخل الثَّورة»، يطرح بورديو فرضيَّة مفادها أنَّ حرب التَّحرير بالجزائر سلَّطَت الضَّوء على العديد من التَّحوُّلات الَّتي كان المجتمع الجزائريُّ يشهدها بالفعل. ويتورَّط بورديو أحياناً في تعميمات مُحرجة، حين يكتب مثلاً (1962: 156) إنَّ النَّماذج الثَّقافيَّة، في مجتمع تُستقى فيه معرفة الذَّات من خلال الإحالة على الذَّات فحسب، «تعتبر، رغم كونها اعتياديَّة وبالتَّالي اعتباطيَّة، عاديَّة وطبيعيَّة. لكنْ فورَ اكتشاف نظامٍ ثقافيٍّ أجنبيٍّ؛ ينكشف فجأة جوهرها المخفيُّ». فاكتشاف وجود أعراف أُخرى؛ يقود إلى فهم جديد لأعرافنا.

وحتَّى لو أخذنا في الاعتبار اللَّاتاريخانيَّة السُّوسيولوجيَّة لجزء كبير من التَّقارير الإثنوغرافيَّة في السِّتِّينيات؛ فإنَّ فرضيَّة التَّقوقع على الذَّات في بلاد القبائل تظلُّ أمراً مُحيّراً، وذلك بالنَّظر إلى مساهمات علماء الدِّين والشُّعراء القبائليّين في المجتمع المسلم والعربيِّ، إضافةً إلى التَّفاعل الاقتصاديِّ المستمرِّ مع بقيَّة العالم. لكن على الرَّغم من هذا القصور؛ ينجح بورديو في الارتقاء بدراسته عن الصِّراعات السِّياسيَّة الآنيَّة.

في الجوهر والمقاربة؛ يكتب بورديو على نحو مُشابه لأسلوب مادَّة موسوعيَّة نموذجيَّة، وهو إنجاز كبير بالنَّظر إلى الظُّروف المشحونة في تلك المرحلة. وقد كان مُتمكِّناً من موضوعه الإثنوغرافيِّ بشكلٍ كافٍ ليمنحنا شعوراً بسلطته المعرفيَّة الإثنوغرافيَّة، كما هو الحال عند وصف البيت القبائليِّ. وللإشارة؛ لم أعرف إلَّا في السَّنوات الخمس الأخيرة أنَّ استقصاءه الميدانيَّ تمَّ في قُرىً صغيرة مُحصَّنة (معسكرات تجميع) في ذروة الصِّراع الجزائريِّ؛ ما يعني أنَّ بنية القرية الَّتي يصفها هي في أفضل الأحوال صورة مثاليَّة عن الماضي. ولم يكن هذا السِّياق واضحاً؛ إذ تبدو الصُّورة الإجماليَّة المعروضة في كتاب (**الجزائريُّون**) كما لو كانت لقرية وتنظيم اجتماعيٍّ سرمديَّيْنِ.

لم تُعمِّر بعض تعميمات بورديو حول طبيعة المجتمع الجزائريِّ، لكنَّ الكتاب يحافظ من ناحية البنية على توازن بين المخصوص والمجرَّد. وبالنَّظر إلى أنَّه كان موظَّفاً في الدَّولة وأستاذاً جامعيَّاً؛ فقد حظي بالحيِّز الَّذي يحتاجه لمواجهة الجمهور الفرنسيِّ بحُججه، على الأقلِّ أولئك المهتمِّين بقراءة علم الاجتماع، حتَّى وإنْ تمَّ السُّكوت عن نقد النَّشاط الفرنسيِّ في الجزائر.

وعلى نحو مُماثل؛ يأخذ كتاب إرنست غيلنر (**أولياء الأطلس الصَّالحون**) (1969) مسافة من السَّنوات المضطربة؛ السَّابقة لكفاح المغرب من أجل الاستقلال عام 1956 والأعوام الموالية له، رغم أنَّ جزءاً كبيراً من بحثه الميدانيِّ أُجري نهاية الخمسينيات وبداية السِّتِّينيات، وأيضاً رغم أنَّه سعى في موضع آخَر إلى موقعة الانتفاضات القَبَليَّة في تلك الحقبة ضمن سياق سوسيولوجيٍّ أوسع. وكما هو الحال في سوسيولوجيا بورديو المبكرة؛ ما يزال جدل (polemic) غيلنر يحظى بقوَّة ثابتة، لكن ضمن سياق النِّقاش والحوار الأكاديميَّيْنِ.

يُعدُّ كتاب عبد الله حمودي: (**الشَّيخ والمُريد**) (1998) نموذجاً آخَر للتَّوازن بين التَّحزُّب والبحث العلميِّ. وفي تمييز أشعيا برلين بين القُنفد والثَّعلب؛ يقول: إنَّ القُنفد يَعرف شيئاً واحداً بشكل جيِّد، فيتشبَّث به ويتحرَّاه في عُمقه، أمَّا الثَّعلب؛ فيعرف القليل عن أشياء كثيرة، ويربط بينها بمهارة. في كتاب (**الشَّيخ والمُريد**)؛ يزاوج حمودي بين المقاربتين. فعلى مستوىً أوَّل؛ يهتمُّ كتابه بالأسس الثَّقافيَّة للسُّلطويَّة المغربيَّة، وبالتَّحديد؛ مصادر «حيويَّة واستمراريَّة» السُّلطة الملكيَّة منذ 1956 في «الدَّولة الأُمَّة المغربيَّة ما بعد الاستعماريَّة»

(hammoudi 1998: 11). وعلى مستوى آخَر؛ يُجادل بأنَّ السُّلطويَّة المغربيَّة -وهي «خليط بين الإكراه وبين انتقال فكرة وجدانيَّة قويَّة عن الجماعة إلى مجالات الحقل السِّياسيِّ المنفتحة مؤخَّراً (تقوم السُّلطويَّة المغربيَّة على ارتباطٍ إنسانيٍّ ذي فضاء محدود الجدال)» (hammoudi 1998: xviii)- تُسلِّط الضَّوءَ على نماذج سلطويَّة مُعيَّنة في أمكنة أخرى، وعلى المجتمعات العربيَّة على وجه الخصوص. ويؤكِّد أنَّ «الآليَّة الأساسيَّة» لجميع الدُّول العربيَّة، سواءٌ كانت مَلَكيَّة أو أنظمة حزب واحد، هي «تَفرُّد وجهٍ مركزيٍّ أوحَد باتِّخاذ القرارات الَّتي تهمُّ تطلُّعات ومستقبل المجتمع المحكوم» (hammoudi 1998: 150).

ويمكن للمرء مناقشة مزايا صورة حمودي المركزيَّة للشَّيخ والمريد، لكن من الأنسب مشاطرته التَّفكير مع البقاء بعيداً عن النَّقد المباشر لأساليب الحُكم المغربيَّة أو العربيَّة. وتشمل الدِّراسات الاجتماعيَّة الأُخرى الَّتي حقَّقَت توازناً بين الحُجَّة القويَّة والتَّحزُّب؛ كتابَ (**موضوع الذَّاكرة: العرب واليهود يسردون القرية الفلسطينيَّة**) (1998) لسوزان سليموفيتش، الَّذي حقَّق توازناً دقيقاً بين التَّغيُّرات من جيل لآخَر في المحكيَّات اليهوديَّة والعربيَّة عن انتزاع الملكيَّة، وكتاب (**الفلسطينيّ التَّائه**) (2004) لليتيسيا بوكاي؛ الَّذي يسرد -من وجهة نظر شباب مختلف الفصائل السِّياسيَّة- صراعَ الشَّباب اليوميَّ للحفاظ على حسٍّ بالعمل في مجتمع غير مستقرٍّ. وبطريقة مشابهة؛ يصف كتاب (**أن تكونَ حداثيًّا في إيران**) (2000) لفربا عادلخاه؛ غليانَ المجتمع الإيرانيِّ، ويكشف من منظور سوسيولوجيٍّ عن التَّحوُّلات الأساسيَّة في أنماط المسؤوليَّة، والعلاقات بين الجنسين، والفرد والمجتمع، والممارسة والتَّعبير الدِّينيَّين.

النِّطاق والموضوع في الأنثروبولوجيا الشَّرق أوسطيَّة: الماضي والحاضر

يوجد كذلك تغيُّر في تصوُّر طبيعة «الموضوع» المدروس في العلوم الاجتماعيَّة في الشَّرق الأوسط، حيث نلحظ توجُّهاً نحو إقحام البحث الاجتماعيِّ في نقاشات السِّياسات العموميَّة. حين أصبحتُ باحثاً أنثروبولوجيًّا في السِّتِّينيات؛ كانت أغلب الدِّراسات المتوفِّرة مُهتمَّة بالمجتمعات الرَّعويَّة، فيما اهتمَّت بقيَّتُها بالقرى. ورغم دراسة جغرافيِّين ألمان لمُدن وأسواق في هذه الحقبة المبكرة، كأبحاث هاينز غوب ويوجين ويرث حول مدينة حَلَب (1984)، لم يتسنَّ لي الاطِّلاع على أعمالهم حتَّى نهاية التِّسعينيات؛ إذ إنَّ الأنثروبولوجيِّين كانوا غالباً ما يشتهرون بغيابهم. وفي هذا الصَّدد؛ تميَّز كتاب كينيث براون (**أهل سلا**) (1976)، والمصنَّف ضمن خانة التَّاريخ الاجتماعيِّ، بكونه أولى الدِّراسات ذات الطَّابع الأنثروبولوجيِّ، إضافة بالطَّبع إلى أعمال إيمانويل ماركس ودارسين إسرائيليِّين آخرين. وبالفعل؛ فإنَّ المسافة بين دراسة ماركس الأولى، كتاب (**بدو النَّقب**) (1967)، الَّتي تناسب خانة الدِّراسات الأنثروبولوجيَّة الكلاسيكيَّة لتلك الحقبة، وبين المقاربة المختلفة الَّتي يُمثِّلها كتاب (**صورة مركَّبة لإسرائيل**) (1980)، توحي بالتَّحوُّل المتصاعد الَّذي شهده الاختصاص. أمَّا الآن؛ فيوجد عدد وافر من الدِّراسات في المدن، تهتمُّ باقتصاديَّات الحِرَف، والقروض الصُّغرى، واتِّحادات

العمَّال، والتَّعليم، ودراسات عن المدن تتمحور حول الطَّبيعة الثَّقافيَّة للتَّكوينات الحضريَّة في حدِّ ذاتها. أمَّا التَّوجُّه الإثنوغرافيُّ القديم نحو المناطق المحددَّة، الَّذي يمكن وصفه كاريكاتوريَّاً بأنَّه ينطلق في بداية البحث من قرية ليبلغ بقيَّة العالم في فصلٍ ختاميٍّ قصير، معلِّقاً على «التَّغيير»، فقد فتح المجال أمام طرق إدراك مواضيع وقضايا أكثر إقناعاً وتنوُّعاً.

ونلمس هذه النَّقلة من خلال نموذج الاستذكار الشَّخصيِّ؛ فقد نشرتُ عام 1992 مقالاً في مجلَّة (**الإثنولوجيّ الأمريكيّ**) (american ethnologist) حول آثار تصاعد جماهيريَّة التَّعليم العالي في المجتمعات العربيَّة. وفي معرض موافقته على نشر المقال؛ كتب لي دون برينيس، مُحرِّر المجلَّة آنذاك، قائلاً: إنَّ هذا أوَّل مقالٍ إثنوغرافيٍّ تقبله المجلَّة رغم أنَّه لا يُعنَى بمكان معيَّن. كذلك يشمل كثير مِمَّا ندرسه اليوم روابط دائمة بين مجتمعات الشَّرق الأوسط وما اصطلحنا على تسميته: جاليات الشَّتات، رغم أنَّ زيادة السُّرعة والرَّاحة في السَّفر والتَّواصل تُغيِّر العلاقات بين الأوطان وجاليات المهاجرين أو الأفراد ذوي العقليَّات المماثلة؛ المتواجدين وراء البحار إلى أواصر أكثر حميميَّة ومباشرة.

يتوجَّب على الدِّراسات المعاصرة حول المنطقة التَّعامل مع مجموعة من القضايا الأساسيَّة الَّتي تُشكِّل افتراضيَّاً جميع أنماط فهم المنطقة؛ إذ على الرَّغم من نجاح بعض البلدان في تقليص مُعدَّل نموِّ السُّكَّان؛ إلَّا أنَّه ما يزال عالياً في جميع أنحاء المنطقة. ومع أنَّ معدَّل نموِّ السُّكَّان يبلغ أعلى مستوياته في غزَّة؛ إلَّا أنَّ مُعدَّلات النُّموِّ في كثير من دول شبه الجزيرة العربيَّة لا تقلُّ عنه كثيراً. وبصفة عامَّة؛ تشهد المنطقة أيضاً انحداراً في الفُرص الاقتصاديَّة. فالمعدَّلات الرَّسميَّة لبطالة الشَّباب تحوم حول نسبة 30%، لكنَّ المعدَّل الحقيقيَّ أعلى بكثير. وقد كانت نسبة البطالة تبلغ 30% في أسوأ فترات الكساد الأمريكيِّ في عقد الثَّلاثينيات. واليوم؛ فإنَّ الأغلبيَّة السَّاحقة من سكَّان المنطقة حضريُّون، ولكنَّهم يعيشون في محيط يستفحل فيه عجز سلطات الدَّولة، بما في ذلك الدُّول النَّفطيَّة الثَّريَّة، عن توفير بنيات تحتيَّة ملائمة.

ويمثِّل التَّعليم إحدى النُّقط المضيئة القليلة؛ إذ تنتشر الفرص التَّعليميَّة اليوم على نطاق أوسع مِمَّا كان عليه الأمر في منتصف القرن العشرين، للإناث والذُّكور على حدٍّ سواء. فمنذ الخمسينيات؛ دخلت بلدان المنطقة واحدة تلو الأُخرى حقبة التَّعليم العالي الجماهيريّ. وقد أدَّى ارتفاع نسبة التَّعليم العالي واقترانه في السَّنوات الأخيرة بازدياد عدد القنوات الفضائيَّة على صعيد المنطقة؛ إلى إقبال جمهور واسع على متابعة النِّقاشات الَّتي كانت مشاهدتها خلال الأجيال السَّابقة تقتصر على الأقلِّيَّة. لكن، وللمفارقة، شهد هذا الارتفاع في التَّعليم العالي الجماهيريّ انحداراً في المعايير العامَّة وانفصالاً متنامياً للأنظمة التَّعليميَّة عن التَّشغيل وإمكانيَّات رفع مستوى المعيشة. ففي عام 2003؛ أثار تقرير التَّنمية الإنسانيَّة العربيَّة بكلِّ شجاعة أوجهَ قصور أغلب الحكومات العربيَّة في دعم الحاجات المعرفيَّة للمجتمعات العربيَّة.

تأخذ الأفكار العموميَّة المشتركة عن الجماعة والهويَّة والزَّعامة؛ شكلاً جديداً في مثل هذه المتطلَّبات، حتَّى وإن ادَّعَت جماعات وسلطات كثيرة استمراريَّة ثابتة من الماضي. فالتَّعليم الجماهيريُّ، الَّذي لعب دوراً شديد الأهمِّيَّة في تطوُّر القوميَّة في حقبة سابقة، وانتشار وسائل الإعلام وأدوات التَّواصل، كلُّها عوامل ضاعفت إمكانيَّات خلق جماعات وإنشاء شبكات فيما بينها، ما أزالَ العوائقَ السَّابقة كالفضاء والمسافة، وفتح مجالات جديدة للتَّفاعل والاعتراف المتبادل. ويجزم الكثيرون، في حقلَي السِّياسة والدِّين، باستمرار روابط قويَّة مع الماضي، لكنَّ ممارسة الدِّين والسِّياسة اليوم تنقل بصورة ملحوظة أفكاراً مختلفة عن الفرد والسُّلطة والمسؤوليَّة.

تشمل بعض أهمّ نتائج ارتفاع التَّعليم الجماهيريّ وتَيسُّر السَّفر والتَّواصل؛ اعترافاً أكبر بأنَّ الحكومات أصبحت أكثر عجزاً ولا مُبالاة بتوفير السِّلَع والخدمات، على الرَّغم من مطالبتها النَّاس بالولاء، وإجبارهم على الطَّاعة. كما تشمل هذه النَّتائج السُّهولة المُطَّردة لانسياب المعلومات عبر الحدود. وكما كتب صادق جلال العظم (2000)، فبالرَّغم من المنع التَّامّ لكلِّ إذاعة أو نشر لِمَا يدور من مفاوضات بين إسرائيل وسوريا حول معاهدة سلام في نهاية عقد التِّسعينيات؛ فقد كانت لصالونات دمشق نظرة متزامنة وشديدة الدِّقَّة لِمَا كان يجري في الكواليس، وهو ما أكَّدَته الصَّحافة الأجنبيَّة لاحقاً.

وكنتيجة لِمَا أسميتُه رفقة جون أندرسون (eickelman and anderson 2003) «النَّاس الجُدُد وأشكال التَّواصل الجديدة»؛ فقد تقلَّصت المسافة والتَّراتبيَّة الاجتماعيَّتان، فلم تعد رؤى النُّخبة السِّياسيَّة والدِّينيَّة وحدَها الحاسمة اليوم، بل كذلك رؤى أُناس آخرين. ورغم تركيزي رفقة أندرسون على الآثار المترتِّبة عن الإعلام الجديد؛ تُذكِّرنَا دراسة ماغنوس مارسدن، حول منطقة شيترال في شمال غرب باكستان (2005)، بأنَّ المساهمة في هذه النِّقاشات لا تقتصر على الطَّبقة الوسطى المتعلِّمة، بل يساهم فيها كذلك القرويُّون العاديُّون المستهدفون ليس فحسب مِن قِبَل المناضلين من أجل عقيدتهم، بل وأيضاً من قِبَل الطَّريقة الصُّوفيَّة المحلِّيَّة المشترَكة والمتميِّزة بمعرفة منضبطة لا تعترف بالعقيدة والعقل فحسب، بل بالعواطف والمشاعر النَّابعة عن التَّجربة أيضاً.

البحث العلميُّ المعولَم وتقييم النُّظراء

كان يمكن للمرء، قبل ثلاثين عاماً، ملاحظة تقاليد وطنيَّة مختلفة في العلوم الاجتماعيَّة. أمَّا اليوم؛ فيعمل العلماء الاجتماعيُّون أكثر من الماضي في بيئة عالميَّة يتعاظم فيها الوعي بالتَّقاليد الوطنيَّة المكمِّلة للبحث العلميّ. ولم تعد الدِّراسات الألمانيَّة والمغربيَّة واليابانيَّة والفرنسيَّة والأمريكيَّة والرُّوسيَّة والبلغاريَّة

والبريطانيَّة حول الطُّرق الصُّوفيَّة؛ مُنفصلةً أو مُتباينة كما كانت في مراحل سابقة. وفي ما يخصُّ الشَّرق الأوسط؛ تجمع العلوم السِّياسيَّة الفرنسيَّة المعاصرة بين التِّقنيات الأنثروبولوجيَّة وأساليب تحليل أكثر تقليديَّة.

وينبني دمجُ أشكال البحث هذا بصفة جزئيَّة على عمل مؤسَّساتيٍّ مقصود. ففي عام 1983؛ أسَّس المجلس الأمريكيُّ للبحث في العلوم الاجتماعيَّة لجنةً مشتركة لدراسة مقارنة للمجتمعات المسلمة، وخلال مدَّة وجودها -إذ تمَّ حلُّها عام 1991- استحدثت برنامجاً لرعاية ورشات عمل الأطروحات وفتحها أمام مُرشَّحي الدُّكتوراه القادمين من جميع أنحاء العالم. والتقى المرشَّحون بعلماء بارزين من شتَّى الاختصاصات، وتمكَّنوا، من حيث المبدأ، من تجريب مقاربات متكاملة على مواضيع مشتركة في مرحلة مبكرة من مسارهم البحثيِّ، مقارنةً بما كان ممكناً في وقت سابق. ورغم أنَّ اللَّجنة لم تعد موجودة؛ إلَّا أنَّ الجهود اللَّاحقة الَّتي تبذلها مؤسَّسة دراسة الإسلام في العالم الحديث (leiden 198-2008)، ومؤسَّسة فان هامبولت الألمانيَّة، ومؤسَّسة الجامعة الأوربيَّة في فلورنسا، تُوفِّر اليوم فرصاً مشابهة.

وتُمثِّل الصُّورة الضَّبابيَّة للتَّقاليد التَّخصُّصيَّة والوطنيَّة في البحث العلميِّ حقيقةً واقعة، لكنَّ دمج الأنماط المتغيِّرة المتعلِّقة بتمويل الدَّولة والجهات عبر الوطنيَّة (كما هو حال مؤسَّسات ومشاريع معيَّنة يرعاها الاتِّحاد الأوربيُّ) مع الجهود المبذولة لتأطير دعم البحث العلميِّ بهدفِ تحجيم المصالح الحزبيَّة أو الوطنيَّة؛ يبقى قويَّاً. وقد سبق أن ذكرتُ جهوداً بُذِلَت في الولايات المتَّحدة بهدف ربط الدَّعم الفيدراليِّ للبحث العلميِّ بمصالح وطنيَّة بمعناها الضَّيِّق، وهو تهديد نلمس مثيله في بلدان أُخرى في أوربا وآسيا والشَّرق الأوسط.

ولا يُقدِّم تقييم النُّظراء إجابات سهلة حول تحديد موقع البحث العلميِّ من حيث المصلحة الوطنيَّة أو الصَّالح العامِّ، لكن يجب أخذ مثل هذه القضايا في الحُسبان عند الرَّدِّ على الأسئلة المفتاحيَّة الَّتي ينبغي أن يطرحها أيُّ نظير مقيِّم: ما الَّذي يمكن تعلُّمه من هذا البحث؟ لماذا يستحقُّ أن نعرفه؟ كيف نعرف أنَّ نتائجه صائبة؟ وهل من المحتمل أن يؤثِّر على أعمال أُخرى في تخصُّصات مختلفة؟

تستقي الأسئلة السَّابقة معينَها من كُتيِّب أو رائد (przeworski and salomon 1998 revise, 1995)، كان يصعب الحصول على نسخة مطبوعة منه، لكنَّه مُتوفِّر الآن بيُسر على الأنترنت. ومن بين كلِّ ما كُتب حول تقييم النُّظراء؛ يبقى هذا الكُتيِّب البيانَ الأكثرَ براغماتيَّة وإيجازاً للعلوم الاجتماعيَّة. لكنَّ هذه الأسئلة، الَّتي تبدو مُستقلَّة بذاتها، تأتي في سياق جديد مُتغيِّر بشكل غير ملحوظ. ففي السَّنوات الماضية؛ أصبح الموقع الإلكترونيُّ للمجلس الأمريكيِّ للبحث في العلوم الاجتماعيَّة، الَّذي تأسَّس عام 1923 بفضل دعم مؤسَّساتيٍّ لإضفاء طابعٍ احترافيٍّ على العلوم الاجتماعيَّة، يُعرِّف مهمَّته بأنَّها: «تقديم **المعرفة اللَّازمة** حول القضايا العامَّة». قد تبدو الكلمات المكتوبة بخطٍّ غليظ؛ دفاعيَّة، لكن بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 بوقت قصير؛ افتتح المجلس الأمريكيُّ للبحث في العلوم الاجتماعيَّة، الَّذي يتَّخذ من نيويورك مقرَّاً

له، أوَّلَ مكتب له في العاصمة واشنطن. ففي عالم تتغيَّر فيه فرص التَّمويل؛ من الحكمة أن تُعطي انطباعاً بتضافر جهودك مع الآخرين لتظلَّ في دائرة اهتمامات السِّياسات العامَّة.

العلوم الاجتماعيَّة والمسؤوليَّة العامَّة

يتقاطع دور العالِم الاجتماعيِّ في المجتمع مع دور المثقَّف. فعلى الطَّرَف النَّقيض للطَّيف السِّياسيِّ، وبموازاة لافتة للنَّظر، يكتب إدوارد سعيد (1994: 120):

مهما ادَّعى المثقَّفون أنَّ تمثيلاتهم تعنى بشؤون أسمى أو قيم مُطلقة؛ فإنَّ الأخلاقيَّة تبدأ بطريقةِ تصرُّفهم في عالمنا العلمانيّ هذا ـ أين يحدث هذا التَّصرُّف؟ مصالح مَن يخدم؟ كيف ينسجم مع مبدأ أخلاقيٍّ مُتَّسق وكونيٍّ؟ كيف يُميّز بين القوَّة والعدل؟ وماذا يُكشف عن خيارات المرء وأولويَّاته؟

لذلك يتحتَّم على العلوم الاجتماعيَّة، أينما كانت، عقد نقاشات بحثيَّة حول المحيط والإطار الملائمين للسِّياق المتغيِّر الَّذي يُمكِّن العلوم الاجتماعيَّة من تحقيق أقصى إمكانيَّاتها، مع المحافظة على توازن بين التَّفكير الاجتماعيِّ والمسؤوليَّة العامَّة.

بطريقة مشابهة للدَّرس الفرنسيِّ الكلاسيكيِّ، كما وصفه بورديو (1967)، استخدمتُ في هذا الفصل أضداداً مُتقابلة. وهكذا؛ فإنَّ مقاربة إيمانويل ماركس ومشروع برنشتاين يتناقضان ضمنيَّاً مع مقاربة مارتن كرامر. فقد أنتج رفقاء ماركس علمَ اجتماعٍ أفضل من خلال النَّأي بأنفسِهم عن أهداف السِّياسات والدَّولة المجاليَّة كموضوع لدراساتهم، مَا جنَّبَهم الارتباط بالوطنيَّة الإسرائيليَّة السَّائدة حينها. أمَّا كرامر، من ناحية أُخرى، فقد تخلَّى عن استقلاليَّة الدِّراسات الشَّرق أوسطيَّة الأمريكيَّة من خلال ربط التَّمويل الأكاديميِّ بدعم أهداف السِّياسات الآنيَّة. وعلى نحوٍ مُشابه؛ فإنَّ إدوارد شيلز، وهو من المناصرين المحافظين للجدارة الأكاديميَّة، يُعتبر من نواحٍ كثيرة نقيضاً لإدوارد سعيد؛ أحدِ مؤيِّدي النَّقد التَّفكيكيِّ. لكنَّهما مع ذلك يتَّفقان ضمنيَّاً في أنَّ أحدَ أدوار العلماء الاجتماعيِّين هو قول الحقيقة للسُّلطة، وهي مسؤوليَّة تتطلَّب منهم أن ينخرطوا، إضافة إلى عملهم البحثيِّ، في القضايا العامَّة، وأن يشرحوا لجماهيرهم المختلفة ماهيَّة عملهم الَّذي قد يجعل ما قد يبدو طلاسم معرفيَّة؛ حاجةً مُلحَّة وبحثا يُسفر عن نتائج غير مُصاغة أو مُصمَّمة على مقاس رغبة المُموِّلين أو صُنَّاع القرار. فالحفاظ على التَّوازن بين هذه العوامل المتنافسة؛ هو مسؤوليَّة مشتركة بين جميع العلماء الاجتماعيِّين، لكنَّها تقع بصفة خاصَّة على عاتقِ دارسِي الشَّرق الأوسط.

شُكْر:

قدَّمْتُ صيغاً أوَّليَّة مِن هذا الفصل في المؤتمر العالميّ الأوَّل لدراسات الشَّرق الأوسط المنعقد في ماينز بتاريخ 9 أيلول/سبتمبر 2002، وفي حلقة دراسيَّة في قسم الأنثروبولوجيا، جامعة طوكيو الكبرى بتاريخ 13 تشرين الأول/أكتوبر 2002؛ وفي قسم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع بجامعة بن غوريون في النَّقب، بئر السَّبع، بتاريخ 5 كانون الأول/ديسمبر 2002، كما شكَّل هذا الفصل درس «كالر» السَّنويّ العشرين في مركز موشي ديان للدِّراسات الإفريقيَّة والشَّرق أوسطيَّة، بجامعة تل أبيب، بتاريخ 15 كانون الأول/ديسمبر 2003، وفي مركز الدِّراسات بين الثَّقافات، بجامعة القدِّيس كليمنت الأوخريديّ، بصوفيا، بتاريخ 8 آذار/ مارس 2005. وأتوجَّه بالشُّكر إلى جميع مَن حضرَ هذه المناسبات على تعليقاتهم القيِّمة، وأشكر كذلك جون أندرسون وسايمن أوميرا، على تعليقهما على الصِّيغة قبل النِّهائيَّة.

الإحالات

- adelkhah, fariba. 2000. being modern in iran, trans. from the french by jonathan derrick. new york: columbia university press.

- تقرير التّنمية الإنسانيَّة العربيَّة لعام 2003: بناء مجتمع المعرفة.
http://www.un.org/arabic/esa/rbas/ahdr2003/

- al-azm, sadik j. 2000. the view from damascus, in new york review of books, 47(10): 70-77

- american association of university professors. 2006. academic boycotts: conference papers. academe 92(5): 35-83

- bloch, marc. 1964. feudal society, trans. l.a. manion. chicago, il: university of chicago press.

- bourdieu, pierre. 1962. the algerians, trans. alan c.m. ross. boston, ma: beacon press.

- brown, kenneth. 1976. people of sale: tradition and change in a moroccan city 1830-1930. cambridge, ma: harvard university press.

- bucaille, laetitia. 2004. growing up palestinian: israeli occupation and the intifada generation, trans. anthony roberts. princeton, nj: princeton university press.

- diamond, sigmund. 1992. compromised campus: the collaboration of campuses with the intelligence community, 1945-1955. new york: oxford university press.

- dzicgiel, leszek. 1981. rural community of contemporary iraqi kurdistan facing modernization. krakow: agricultural academy.

- __1998. paradise in a concrete cage: daily life in communist poland, an ethnologist's view. krakow: wydawn arcana.

- eickelman, dale f. 1992. mass higher education and the religious imagination in contemporary arab societies. american ethnologist, 19(4): 643-55

- __2001. the west should speak to the arab in the street, in daily telegraph (london), 27 october. (littp://news.telegraph.co.uk/newshnain.jhtml?xml----%2fnews%2172001%2f10%2f27%2fweick27.xml).

- eickelman, dale f. and anderson, jon w. 2003. redefining muslim publics, in new media in the muslim world: the emerging public sphere, 2nd edition, edited by d.f. eickelman and j.w. anderson. bloomington: indiana university press, 1-18

- foucault, michel. 1977. discipline and punish: the birth of the prison, translated into english by alan sheridan. new york: pantheon.

- frierson, elizabeth. 2004. gender, consumption, and patriotism: the emergence of an ottoman public sphere, in public islam and the common good, edited by a. salvatore and d.f. eickelman. leiden: brill, 99-125

- gaube, heinz and wirth, eugen. 1984. aleppo: historische trod geographische beitrlige zur baulichen gestalturtg, zur sozialen organisation and zur wirtschaftlichen dynamik einer vorderasiatischen fenthandelsmetropole. weisbaden: l. reichert.

- gellner, ernest. 1962. patterns of rural rebellion in morocco: tribes and minorities. european journal of sociology 3(2): 297-311

- __saints of the atlas. chicago, il: university of chicago press.

- hammoudi, abdellah. 1998. master and disciple: the cultural foundations of moroccan authoritarianism. chicago: university of chicago press.

- horowitz, irving louis (ed.) 1974. the rise and fall of project camelot: studies in the relationship between social science and practical politics, revised edition. cambridge: mit press.

- jaschik, scott. 2006. british scholars seek to cut ties to israeli scholars. inside higher ed. 30 may (http://w.insideltighered.com/news/2006/05/30/ boycott).

- kohl, philip l. and fawcett, clare (eds). 1995. nationalism, politics, and the practice of archaeology. new york: cambridge university press.

- kramer, martin. 2001. ivory towers on sand: the failure of middle eastern studies in america. washington dc: washington institute for near east policy.

- makiya, kanan. 1998. republic of fear: the politics of modern iraq, updated edition. berkeley: university of california press.

- marsden, magnus. 2005. living islam: muslim religious experience in pakistan's north-west frontier. cambridge: cambridge university press.

- marx, emanuel. 1967. bedouin of the negev. manchester: manchester university press. (ed.)

- __1980. a composite portrait of israel. london and new york: academic press.

- mearsheimer, john, and walt, stephen. 2006. the israel lobby. london review of books 28(6), http: //www.lrb.co.uk/v28/n06/print/mear01.html

- mills, c. wright. 1956. the power elite. new york: oxford university press.

- ناؤومكين، فيتال، الجبهة القوميَّة في الكفاح من أجل استقلال اليمن الجنوبيَّة والدِّيمقراطيَّة الوطنيَّة، ترجمة سليم توما، دار التَّقدُّم، موسكو، 1984

- __2004. red wolves of yemen: the struggle for independence. new york: oleander press.

- przeworski, adam and salomon, frank. 1995. the art of writing proposals, revised edition. new york: social science research council. (www.ssre.or fellowships/art_of writing_proposals. page).

- said, edward w. 1994. representations of the intellectual. new york: vintage books.

- shills, edward. 1972. the intellectuals and the powers. chicago: university of chicago press.

- __1997. the calling of education. chicago: university of chicago pres.

- shnirelrman, victor a. 1996. who gets the past? competition for ancestors amo non-russian intellectuals in russia. washington, dc: woodrow wilson center press.

- tishkov, valery, 2004.chechnya: life in a war-torn society. berkeley: university of california press.

- us congress. 1986. science and the regulatory environment. house of representatives, committee on science and technology, task force on science policy, 99th congress, 2nd session, 26 february and 5-6 march, washington dc: us government printing office.

- verdery, katherine. 1991. national ideology under socialism: identity and cultural politics in ceausescu's romania. berkeley: university of california press.

- weber, max. 1978. weber: selections in translation, edited by walter g. runciman. cambridge: cambridge university press.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2022

جميع الحقوق محفوظة © 2022